« فهو لم يزد على أن أورد البيت ، ثم استغلق دون استيعاب ما يعبر عنه من روح الفنان الحي، الموكل بالجمال حيثما وجد، وكيفما كان ، الهازئ بخرف التقاليد ، وقيود العُرف ، ولم يجد ما يقوله إلا « بلا قرف » وهو قول لا تعليق لنا عليه »

ثم يعود فيقول : إن هذا يمثل هروب الرافعي « من مواجهة النقد الصحيح إلى المراوغة وكسب الموقف — في رأيه — بنكتة أو تهكم أو شتيمة »

وأنا لا أعجب لكلام الأستاذ سيد قطب ، لأنه على طريقته في حل المنظوم ، وإن أعجب فعجبي لصاحب « وحي الأربعين » كيف ارتضى أن يثبت البيت في قصيدته ، وفي عقب هذه القطعة بالذات ، وينتقل من الوصف والتأمل وإمتاع النظر ، وإمداد الفكر بأسباب من الجمال ، أو كما يقول الأستاذ قطب من الطرافة والدعابة والخيال والحيوية ! إلى صيحة الاستنكار والتفزع بقوله: « فلا ملام ولا كلام » ثم الغضب الذي لا يتورع في قوله : « ولا خرف ». إن هذا الانتقال ليس من منطق الفن ولا من نهجه وسبيله

وما أظن الرافعي أراد أن ينقد البيت — لأنه ليس بسبيل مما يحسن أن يُنقد ، وإنما وضعه هكذا للعقاد وهو يريد ما قلناه في كلمتنا الأولى مما جرّته العداوة التي اضطرمت بينهما

* * *

وبعد فقد قرأت كلمة الأستاذ الجليل المهذب سيد قطب في البريد الأدبي من العدد السالف من الرسالة ، وقد أعلن فيها بعض رأيه فيما نكتب ، وحكم بحكمه على ما قلناه ، وحاول أن يتهكم ، ووعظ وذكر . ونحن ندعه لما به عسى أن يرى يوماً غير هذا الرأي، وله الشكر أحسن أو أساء

محمود محمد شاكر

البديل

قصة جديدة

للأستاذ محمود تيمور

تنشرها الرواية في عدد أول يونيو

بين العقاد والرافعي

للأستاذ سيد قطب

— ٤ —

الآن تحدث الأستاذ شاكر — حديثاً ما — في الموضوع الذي نحن بصدده ، وإن كان حديثاً « رافعيا » على الطريقة التي بينت مافيها من استغلاق وقصور، ولكنه على أية حال شيء غير اللمز والتعريض — وإن لم يخل منهما — فالآن يستطيع الانسان أن يلتفت بباله إلى هذا الذي قيل

ولما كانت لي بقية من حديث عن الرافعي، فسأجعل تماشي مع الأستاذ شاكر ، بقية لهذه البقية في كلمة أخرى

وعدت أن أعرض من أساليب الرافعي نماذج غير ما عرضت تأخذ في نهج آخر ، ولكنها تصل إلى الهدف الأول ، من إثبات طبيعته كما عرفتها ، بالنماذج والأمثلة

وأنا ماض في طريقي هذا ، لا يحولني عنه ما يبدو من بعض أصدقاء الرافعي من تعريض أو إثارة ؛ ولن يستفزني ما يكتبون فأحيد عن نهجي الهادئ

وطريقتي في هذا الموقف أن الرافعي قد مات ، وله نوع من الأدب ، فسأناقش أدبه هذا ، وما يدل عليه من نفسه وذهنه تناقش الناقد المطمئن لما يقول

وله أصدقاء أحياء ، فسأناقشهم حسبما يكونون هم : نقاداً أو متهجمين . ولن أخلط بينه وبينهم في الحساب ، فلا ذنب للرجل فيهم ، ولا تبعة عليه بعد موته فيما يصنعون !

تلك طريقتي . وهي ترضيني ...!

* * *

قلت : إن الرافعي أديب الذهن ، ولكنه الذهن الملتوي المعاظل المداخل . واليوم أقول هذا ، وأزيد عليه : أنه « الذهن الشكلي » الذي تلهيه الأشكال والسطوح عن الكنه والأعماق ، والذي لا يلمح فرقاً بين صورة وصورة ، ما دام ظاهرهما متشابهاً . فإن أراد أن يطبق أمراً على أمر ، أخذ في قياس الزوايا والخطوط ولم يلق باله لحظة إلى ما في طبيعة كلا الأمرين من خلاف أو زيادة ونقص في بواطن الأجزاء . وإليك البيان :

« القمر » كوكب لا يشرق إشراقه إلا في الليل والظلام ،
و « الحبيبة » تعود الناس أن يشبهوها بالقمر
و « هي » لا تشرق إشراقها إلا في إبان « الحب »

فاذا شاء الأديب أن يعقد من هذه الأطراف تشبيهاً ، وجد قمراً يشرق إذاجن «الظلام» ، ووجد حبيبة تشرق إذا « توهج الحب» فكان لا بد له من التصرف في التشبيه

ولكن الرافعي لا يتصرف ؛ فما دام القمر يجلوه الظلام ، فالحب إذن « ظلام » لأنه يجلو حبيبته ، وسينساها متى انقطع عهد الحب وتختفي من أفقه ، كما أن القمر يخفى إذا طلع الصباح . وهكذا يقول :

يا من على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن « الظلام » الذي يجلوك يا « قمر » له « صباح » متى ندركه « أخفاكا »

فأما البيت الأول فأخوذ عن العقاد الذي لا يعجب الرافعي شعره ! وأما الثاني فهو الذي يعنينا . وفيه ترى «الذهن الشكلي» الذي يستسيغ أن يجعل فترة الحب « ظلاماً » كالليل ، وفترة انقطاعه « نوراً » كالصباح ، لا لشيء إلا لأن القمر المشبه به يشرق في الليل ويخبو بالنهار

والحب الذي هو ظلام ، لا يحتاج للتعليق ، فما يوجد حب في الدنيا تظلم به الأرواح ولكن الرافعي هكذا يقول ... !

وليست هذه خطرة عابرة تلتمس لها الأعذار فان لها أشباهاً في هذه « الخاصية »

يقول الرافعي عن « حبيبته » بعد عدة جمل مملوءة بقياس الأبعاد والجهات والزوايا :

«فكأنها في كل ذلك دائرة مرسومة من الفكر، لا يهديك البحث إلى موضع طرفيها وهي محيطة بروحك من ثلاث جهات ، فلم يبق لك إلا الجهة التي تتصل روحك منها بيد الله »

فدعك من مدلول هذا الكلام وقيمته من « إنسان يحب » أو « يصف الحب » ؛ ودعك من أنه كلام ذهني لا ينبض بحياة ، ولا يدل على خلجة في الشعور ، أو نبضة في الضمير ، ولا يتعدى أن « متكلماً » يصور في « الذهن » أشكالاً تقع أو لا تقع ، ولكنها يمكن عقلا أن توجد ، كفروض الناطقة

دعك من كل هذا ، وتعال انظر كيف يتصور الرجل العوالم الروحية ، أو العوالم الذهنية ... إنه يتصور لها جهات . ولا بد أن تكون هذه الجهات أربعاً كالموسومة في علم الجغرافيا بالجهات الأصلية ، وإنه متى أحيط الانسان بثلاث منها فلن تبقى له إلا واحدة وهي الجهة الرابعة !

ولا يتأتى له أن للحياة — ولا سيما في فترة الحب — ألف جهة وألف منفذ ، وأنها تؤتى من هذه الجهات والمنافذ ، ومن مسارب أخرى ومنعرجات و كُوًى ومداخل لا عداد لها . لأن الذي يتأتى له ذلك لا بد له من « نفس » ، ومن « حس » . أو لا بد له على الأقل من « ذهن » مشرق مرهف ، لا تحده الأشكال الصماء

على أن هناك خطأ نكشفه من باب الدعابة ، « فالدائرة » ليست لها أربع جهات كما تصور الرافعي ، حتى إذا أحيط الانسان من ثلاث لم تبق إلا الرابعة ، إنما يكون ذلك في « الأشكال » الأخرى ، كالمربع والمستطيل ! !

وبسبب من هذا يأخذ قوله عن الناس :

« وألبسهم على تفصيلهم قصاراً أو طوالا ، كما خرجوا من شق المقص : المجتمعين من الليل والنهار تحت مسمار الشمس »

أرأيت إلى « استيفاء الأشكال » في التشبيهات ؟ الليل والنهار كالمقص ، في تفصيل الناس قصاراً وطوالا ... لا بأس ! ولكنه تذكر أن للمقص المستعمل « الآن » مسماراً في وسطه فلا بد إذن من «مسمار» في المشبه ! وهذا المسمار هو الشمس . وبذلك يتم « الشكل » بالدقة بين عمل المقص ، وعمل الليل والنهار ، وبين تركيبه ، وتركيبهما مع الشمس كذلك !

ولن يخطر على بال الرافعي أن الليل والنهار تحت الشمس من الظواهر الأزلية العميقة ، وأن بناءها هكذا عمل سرمدي دائم من بدء الخليقة إلى نهايتها . أما بناء المقص فهو شكلي وقتي ؛ ليس بلازم أن يكون هكذا أبداً ؛ كما أنه ليس بلازم أن يكون «التفصيل» بأداة واحدة هي المقص وهي على هذا الشكل ؛ وما بين يوم وليلة تتغير الأدوات والآلات ! فما تكون الشمس إذ ذاك ؟

لا . لا شيء من ذلك يخطر على الذهن ، ما دام الشكل مستوفى بكامل أجزائه وأوضاعه . وتلك هي العناية بتصوير الحقيقة

الوقتية العارضة دون التفات إلى الحقيقة الأزلية الدائمة . وهذا ما أشرت إليه فى أول مقال !

ويبدو لى أن الرافعى كان شديد الأثر فى تلاميذه من ناحية « الأشكال » ؛ فها هو ذا الأستاذ سعيد العريان يكتب عنه فى كلمته الأخيرة بالرسالة فيقول :

« فكان يرسل عينه وراء كل منظر ، ويمد أذنه وراء كل حديث ، ويرسل فكره وراء كل حادثة ، ويلقى باله إلى كل محاورة »

فهو قد أراد بهذا أن يستوفى جميع أشكال التنبه والاستيعاب دون أن يلاحظ الصدق والواقع وما يمكن تحققه من هـذه الأشكال بالنسبة لمن يتحدث عنه . ذلك أن المرحوم مصطفى صادق الرافعى لم يكن « يمد أذنه وراء كل حديث » كما يعرف من يعرفه ؛ ولم تكن هذه الحاسة من أدواته فى التنبه والتأمل ، فكان من « الصدق » ألا تذكر دون أن يضيره هذا أو يعيبه ، إذ كان هذا مما لا يعاب . غير أن حب استيفاء جميع الأشكال والفروض هو الذى يدفع الأستاذ سعيداً إلى هذا التفصيل

وليس ذلك بقليل الدلالة على هذه الظاهرة فى مدرسة الرافعى ؛ وما قصدت بإثباتها أن ألمز الرجل كما قد يفهم بعض ذوى الطبائع المنحرفة ، فأخلاق — على الأقل — لا تسمح لى باللمز ، ولكنى أردت إثبات الظاهرة فى أحد تلاميذه ، بلفتة عارضة غير ملتفت إليها ، وهى عميقة الدلالة على اتجاه المدرسة كلها

* * *

وقد أسلفت أننى تلقيت نبأ « حب الرافعى » بكثير من الدهشة لأن « الحب » يتطلب « قلباً » وهو ما كنت أفتقده فيه

والآن أقول : إننى بعد أن فحصت عن هذا « القلب » فى « رسائل الأحزان » لم أجد له ظلا ؛ ثم وجدت هنالك رجلا لا « يفهم » عن الحب شيئاً ، ولا يدرك أثره فى « النفس الحية » ولو من باب الدراسة والملاحظة

وإليك البرهان :

ليس أدل على الجهل بطبيعة الحب من تصويره ظلاماً كما مر وهو النور الشرق الذي يفتح النفس والذهن والعين على عوالم لا عداد لها ولا شطآن . فاذا جاز أن نقول من باب الدعابة : إن التشبيه هناك كان أعز على الرافعى من الحب ، وإن « الصنعة حكمت » كما يقولون ! فكيف نقول فى تشبيه الحب بعد ذلك بالموت حين يقول :

« ولكن هناك موتاً لا ينقل من الدنيا إلى الآخرة ، بل من نصف الدنيا إلى نصفها الآخر ... وهو فى أسرار الانسانية عكس ذلك (الموت) لأنه أظهر ما خفى وهو الحب »

فما معنى أن الحب « موت عكس الموت ؟ » وأنه لا ينقل من الدنيا إلى الآخرة ولكن من نصف الدنيا إلى نصفها الآخر؟ ألعب بالألفاظ أم « شقلبة » فى الأشكال ؟ وعلى أية حال فأين الحب فى كل صوره وأشكاله ، من الموت فى كل صوره وأشكاله ، حتى يسوغ لإنسان أن يجد وجهاً للشبه بين هذا وذاك ؟

إن الحب من سميم الحياة بكل ذراته وآثاره ؛ ولن يكون موتاً أبداً ، لا فى الخارج ولا فى الضمير . وألف سفسطة فى التخريج لا تفسر اقتران الحب بالموت فى «ذهن» من الأذهان !

ويقول :

« وما من أحد فى الأرض يستقيم طبعه على الجمع بين هم الحب وهم الحياة ، فان قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالى به ، إذ هما حقيقتان متدافعتان ، كتيارى الكهرباء ، لو أمكن شىء من المستحيل ، لما أمكن أن يطردا فى سلك واحد ، اطرادهما فى السلكين »

هذه قولة الرافعى وهى دليل لا ينقض على أنه لم « يحس » الحب فى حياته ، ودليل كذلك على أنه لا « يفهم » إحساس الحب فى سواه ، ولا يحسن تعليل ظواهره وتفسير دوافعه ، كل ذى ذهن مشرق مستقيم

هو يرى أن الذى يحب يستخف بهموم الحياة ، حتى يخيل اليه أنه نسيها . فيفهم من ذلك أن هم الحب قد طرد هم العيش ، لأنهما متناقضان متدافعان . وذلك فى « الظاهر » وفى « الشكل » صحيح

ولكن الحقيقة الباطنة أن الحب يضاعف القوى الباطنة ، ويفسح فى الحياة ، ويعمق جوانبها ، فتخف تبعا لذلك على النفس هموم الحياة ، حتى يخيل لصاحبها ذاته أنه ينساها

فليس عن تضاد بين الهمين ولا تدافع ينشأ هذا الشعور ، ولكن عن فسحة فى النفس ، وقوة فى الحس ، لا تضيق ولا تتبرم بهموم الحياة ، لأن النفس أصبحت أكبر وأرحب منها ، فلا تحس بها . وكل شىء نسبى بين القوة والمقاومة

وهذا هو التعليل « الانسانى » والتعليل « النفسى » الذى لا يدركه أدباء الذهن الكليل . ومن هذا النحو قوله :

« فان فى كل عاشق معنى مجهولا ، لا يحده علم ، ولا تصفه معرفة ، وهو كالمصباح المنطفىء ينتظر من يضيئه ليضيء ، فلا ينقصه إلا من فيه قدحة النور ، أو شرارة النار . وفى كل امرأة جميلة واحدة من هذين »

فهكذا يتصور الرافعي أن الحب عند تهيئه للحب ، يكون كالمصباح المنطفىء الخامد الهامد، وقدحة النور أوشرارة النار ، إنما تأتى له من « الخارج » وليست كامنة فى « ضميره » . وهذا التصور يتمشى مع خواء الرافعى وسطحيته

أما الحقيقة الروحية التى يفهمها ذوو « النفوس » فهى أن الحب فيض في النفس ، وامتلاء فى الشعور ، يحس معه الانسان أنه بحاجة إلى صلة إنسان آخر ، لكى يفيض على هذا الانسان من القدر الفائض فى نفسه ويعطيه مما يزخر به شعوره ؛ فالمصباح حين التهيؤ للحب لا يكون منطفئا خامدا هامدا بل يكون موقدا مشرقا يبحث عمن يفيض عليه من نوره ، ويبذل له من اشراقه وميضه . وحقيقة أن « الجميلة » التى يصادفها إذ ذاك تزيد فى اشراقه وتوهجه ، ولكن كما يزيد الزيت فى لألأة المصباح الموقد ، لا كما تصنع الشعلة فى المصباح المنطفىء

وهذا هو الحب فى الحياة ، أما الحب فى « الذهن » وحده فقد يكون ذاك !

* * *

والرافعى في زحمة الحب ، وفى فيضه وانبساطه ، لاينسى عالم الحقد الضيق ، ولارقعة الغيظ المحدودة ، فتلمس فى كلماته ونبراته صوت تضريس الأسنان من الحنق ، وتنزى الأعضاء من الضغن ، وذلك شأن غريب

نعم غريب ، فقد كان مفهوما أن يبلغ به الضغن والحقد على العقاد أن يحجم عن شراء « وحى الأربعين » كما حكى تلميذه العريان ، ولكن الذى لا يفهم أن تلازمه طبيعة الحقد وهو فى معرض الحب . والحقد تيبس فى الشعور

ومن أراد أن يعرف أهم أسباب الحقد فى نظر الرافعى ، وأظهر دوافعه ، فليعلم أنه فوقان إنسان على إنسان في النتاج الأدبى ! ولعل هذا سبب ما بينه وبين العقاد ! فهو يقول عن « حبيبته »

« ولو أن الله مكنها من لغة كتابه الكريم ، لغص منها فى هذا الشرق العربى كل كاتب وكاتبة غصة لا تساغ ولا تتنفس »

أى لو أن هذه المرأة كانت متمكنة من دراسة اللغة العربية لما كان الأثر الذى تخلفه فى نفس كل كاتب وكاتبة بلا استثناء إلا الغصة التى لا تساغ ولا تتنفس

هكذا لا تسمح طبيعة الحقد الأصيلة أن تتصور أن إجادة الأديب تهيء له معجبين بأدبه ، أحباء اليه ، كلا ، بل لا بد من الغصة فى صدورهم . وأية غصة ؟ هى التى لا تساغ ولا تتنفس ...

وهكذا كان الرافعي مع العقاد !

إن فلتات اللسان ، تظهر كوامن الانسان ؛ وهذه فلتة كشفت عن الرافعى فى أعماقه ، وأرتنا أهم عناصر حقده ، ولكنها ليست الوحيدة فاسمعه يقول :

« نصيحتى لكل من أبغض من حب ، ألا يحتفل بأن صاحبته « غاظته » وأن يكبر نفسه عن أن يغيظ امرأة . إنه متى أرخى هذين الطرفين سقطت هى بعيداً عن قلبه ، فانها معلقة إلى قلبه فى هذين الخيطين من نفسه »

أرأيت ؟ ... إن الحبيبة بعد انقطاع الحب ، لا تتعلق بنفس من كان يحبها إلا بخيطين اثنين : غيظها له ، وغيظه لها ! ولا شيء وراء ذلك !

أما أن تكون معلقة بالذكريات المختلفة الألوان ، وبالساعات والدقائق والثوانى التى ضمتهما فى عمرهما ، وبالآمال المحطمة فى قلوبهما ، وبالفجيعة الدامية فى حبهما، وبالصور المتعاقبة من إقبالها وإدبارها ... ومن . ومن . مما لا يستطاع حصره بعد أن تهدأ فورة الحب فى النفس ، ويأخذ الحب في الاستعادة والتذكر والاحصاء والتسجيل — أما كل ذلك فلا وجود له عند الرافعى. وإنما يوجد خيطان اثنان من نسيج واحد ، هو نسيج الغيظ والغل والحقد ، والتيبس فى الشعور !

* * *

وبعد فقد طال الحديث ، ووراء هذه الأمثلة التى ضربتها ، أمثلة أخرى من نوعها ، وفى كل صفحة من الكتاب أمثال غيرها فلا داعى للتكرار

على أن هناك حديثاً عن « ذوق الرافعي » فى التعبير وذوقه فى النقد وموعدى به كلمة أخرى

(حلوان) سيد قطب